بداية الحرب ونهاية السلام

2006/08/22

كان من نتائج التقدم الكبير في صناعة الأسلحة وتطور فنون القتال واستراتيجيات إدارة الحروب من ناحية، وتمزق دول العالم إلى قوى عسكرية واقتصادية وسياسية متنازعة من ناحية ثانية، أنه لم يعد بالإمكان التحكم في نهاية الحروب بعد البدء فيها. وإذا كان من السهل على أي قائد سياسي أو رئيس دولة أن يبدأ حربا، فقد أصبح من الصعب عليه مهما بلغت قوة وجبروت جيشه أن يحقق الأهداف المطلوبة وينهي الحرب متى شاء. إن من الممكن طبعا أن يلحق المعتدي هزيمة نكراء بالخصم ويجبره على الاستسلام والقبول مرغما بما كان يرفضه قبل أن يبدأ العدوان. إلا أن هذا لا ينهي الحرب، بل يؤدي إلى تغيير استراتيجيات القوى المتحاربة، ويفتح المجال لتدخل قوى خارجية ذات مصلحة في استمرار النزاع، ويتسبب بالتالي في تجدد القتال وإطالة أمد الحرب.

وعلى سبيل المثال، استطاعت إسرائيل أن تنتصر على العرب في كافة معاركها معهم على مدى الستين سنه الماضية، إلا أنها لم تستطع وضع حد للصراع والتوصل إلى سلام يحقق لها أهدافها. ولذلك تتواصل الحروب والمعارك، ويستمر الصراع، ويتزايد عدد الضحايا، ويكبر حجم الدمار، ويتعمق الشعور المتبادل بالكراهية، ويزداد إصرار كل طرف على هزيمة الطرف الآخر. وعلى الرغم من انتصار العرب في حرب أكتوبر عام 1973 من الناحية العسكرية، إلا أنهم خسروا الحرب من الناحية السياسية. إذ جاءت الضغوط الأمريكية والتنازلات العربية في المفاوضات السياسية اللاحقة لتحول النصر العسكري العربي إلى هزيمة استيراتيجية، كانت الأكبر في تاريخ العرب الحديث، والأكثر ضررا بمصالح الأمة العربية بعد قيام دولة إسرائيل.

حين وقعت حرب أكتوبر، كان رد فعلي الأول عليها هو أنها عملية عسكرية محدودة لتحريك العملية السياسية، ولذلك أطلقتُ عليها في حينه اسم "حرب التحريك لا حرب التحرير". وبعد توقف العمليات العسكرية وبدء التحركات السياسية، كتبت دراسة تحليلية جاء فيه أنه لو قررت كافة الدول العربية أن تحارب إسرائيل، لكن مصر رفضت المشاركة لأي سبب كان، فإنه لن يكون هناك حرب، لأن كافة الجيوش العربية لا تستطيع مواجهة إسرائيل بدون الجيش المصري. وفي المقابل، لو قرر كل العرب إقامة سلام مع إسرائيل، لكن الفلسطينيين رفضوا السلام المقترح لأي سبب كان، فإنه لن يكون هناك سلام، لأن القضية الفلسطينية هي لب الصراع، وأن حلها هو مفتاح السلام والاستقرار في المنطقة. ولهذا دعيت في حينه إلى قيام تحالف استراتيجي بين قيادة مصر وقادة فلسطين، لأن وجود تحالف كهذا من شأنه أن يتحكم في قرار الحرب ومصير السلام فيما يتعلق بالصراع العربي الإسرائيلي ومستقبل المنطقة العربية.

إن اتفاقية كامب ديفيد بين مصر وإسرائيل لم تحقق السلام المنشود، وذلك لأن الفلسطينيين لم يقبلوا ما عرض عليهم في حينه من شروط، ولأن أمريكا لم تحاول الضغط على إسرائيل لتطبيق قرارات الشرعية الدولية والتوصل لحل شامل لقضايا النزاع بين الطرفين. والآن، وبعد مرور أكثر من ربع قرن على توقيع تلك الاتفاقية، لا يزال الصراع على أشده، ولا تزال أعداد الضحايا من الفلسطينيين واللبنانيين والإسرائيليين والمصريين والسعوديين في تزايد، ولا تزال كل محاولات التطبيع غير قادرة على ترويض أي شعب عربي أو أية فئة من فئاته. إن السلام المصري – الإسرائيلي الذي كان سببا في خروج مصر من دائرة الصراع مع إسرائيل، كان فرصة لاستفراد الكيان الصهيوني بالفلسطينيين واللبنانيين، وقيام جيشه باجتياح بلادهم، وانتهاك حرماتهم، وتدمير بيوتهم، وقطع أشجارهم، وقتل أطفالهم، وذلك دون خوف من ردود فعل عربية فعلية محتملة تكون مصر طرفا فيها. من ناحية أخرى، كان السلام الواهم الذي توصلت إليه مصر وإسرائيل، وممارسات الكيان الصهيوني ضد المدنيين من فلسطينيين ولبنانيين سببا في ميلاد الحركات الإسلامية المتطرفة، والتي كان الرئيس السادات أبرز ضحاياها، واتجاه بعض تلك الحركات لممارسة الإرهاب في مصر والسعودية والأردن وغيرها من بلاد عربية، وحرمان إسرائيل من الأمن الذي كانت تتصور أن معاهدة كامب ديفيد ستوفره لها.

وبعد خروج مصر من دائرة الصراع في عام 1979، وقيام منظمة التحرير الفلسطينية بتوقيع اتفاقية أوسلو في عام 1993، وهي الاتفاقية التي كانت بمثابة جريمة بحق الشعب الفلسطيني، بدأت الدول العربية الأخرى بالخروج من دائرة الصراع الواحدة تلو الأخرى. ولقد وجدت إسرائيل في ذلك الفرصة التاريخية التي كانت تتحينها لفرض السلام الذي تريده على الفلسطينيين واللبنانيين، وتحديد حدودها

بالطريقة التي تراها مناسبة دون التشاور مع الأطراف المعنية، بما في ذلك الطرف الفلسطيني. لكن استسلام أنظمة الحكم العربية وقيادة منظمة التحرير الفلسطينية لم يؤدي إلى استسلام الشعوب العربية التي رفضت السلام الواهم والتطبيع الظالم مع العدو. إن فشل العملية السياسية، واتضاح طبيعة السياسة الأمريكية المعادية، وقبول الأنظمة العربية بشكل مباشر وغير مباشر بواقع الهزيمة، دفع بعض الناشطين السياسيين إلى تنظيم صفوفهم والقيام بالتصدي لمحاولات الاغتصاب الإسرائيلية والهيمنة الأمريكية وعنجهية القوة العسكرية اليهودية، وذلك من خلال دعم حركات المقاومة الإسلامية المسلحة التي تقوم اليوم بتحمل عبء المواجهة مع الدولة العبرية.

إن إطالة أمد الصراع وتعدد ساحاته، وهو الشيء الذي دأبت معظم الإدارات الأمريكية والإسرائيلية على العمل على تحقيقه، لم تكن الدواء الناجع لتوقف الحروب وإنهاء الصراع. إن الاستيراتيجية الأمريكية والحروب الإسرائيلية، وإن أدت إلى استسلام النظام العربي الرسمي، إلا أنها لم تؤدي إلى استسلام الشعوب العربية. وهذا يعني أن الحرب لا تقود بالضرورة إلى تحقيق السلام حتى وإن قادت إلى الاستسلام، وأن من يشعل حربا في عالم اليوم لن يكون باستطاعته التحكم فيها ولا فيما تقود إليه من نتائج، وأن من شبه المؤكد أن تحترق أصابعه فيها. وإذا كانت حروب الجيوش النظامية من الممكن أن تحسم بسرعة، فإن حروب التحرير والمقاومة الشعبية قد لا تحسم في عشرات السنين، لكن التاريخ يشير إلى أن مصير غالبيتها العظمى كان النصر في نهاية المطاف.